

3- الصورة الشعرية في الخطاب الإحيائي الحديث:

استطاعت الحركة الإحيائية إنتاج خطاب شعري يتميز بالأدبية وعولت في ذلك على مجموع الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، مع الإشارة إلى أن عناصرها التركيبية قد انبثقت من عباءة التراثي. ففي غرض الغزل مازالت الصورة الشعرية تهيكّل المحبوبة في فلك الطّبي، والغزال، والشمس، ف "تحكي الطّبي في كناسه والبدر في سمائه، وهي مهابة وألحظها سيوف باترات وقدها غصن يتثنى.. هذه القوالب الموروثة"<sup>1</sup>، وإن بيان ذلك، غزلية البارودي وقد نسجت من ثلاث أبيات فقط، يقول فيها الشاعر:

مَنْ لِي بِطَبِيَّةِ خَدْرِ كُأَمَا وَعَدَتْ      بَرُورَةَ أَعْقَبَتْ لِلْوَعْدِ إِخْلَافًا  
تَحْكِي الْغَزَالَةَ أَلْحَاطًا إِذَا نَظَرْتُ      وَالْوَرْدُ خَدًّا وَغُصْنُ الْبَانِ أَلطَافًا  
تَاهَتْ بِنُقْطَةٍ خَالٍ فَوْقَ وَجْنَتَيْهَا      زِيدَتْ بِهَا عَشْرَاتُ الْحُسْنِ أضعَافًا<sup>2</sup>

ما زالت المحبوبة ضمن الغزل الركن الأساس من أركان تشكيلة الصورة الشعرية، ولكن مرة وردت الصورة استعارة حيث المحبوبة طيبة، وأخرى وردت فيها الصورة تشبيها حيث المحبوبة كغزالة في الألحاط، وأخرى الخد وردا على أساس أنه تشبيه بليغ، وأخيرا القد غصن البان وهو الآخر تشبيه بليغ. ومع المزيد من القراءة لدواوين الإحيائيين بالمشرق ما نزال نتعثر بصناعة الصورة الشعرية الحديثة وهي تتأسس على التراثي حتى كان "تشبيه الأسنان باللؤلؤ، والرضاب بالماء العذب، والخال بال حجر الأسود.. وتشبيه القوام الممشوق بالغصن أو الرمح فذلك كله مما نجده في قصائد الغزليين"<sup>3</sup>.

وإذا انتقلنا إلى غرض المدح فإننا نجد الممدوح تأسست صورته الشعرية ضمن طروح الممدوح كالبحر، وكالبدر، وأخرى كالشمس،.. وهكذا دواليك، الأهم أن العناصر التركيبية للصورة الشعرية ذات أصول تراثية محضة، ودليلنا على ذلك مدحية معروف الرصافي في القائد الغازي مصطفى كمال عقب انتصاره على اليونان سنة 1923م، فما زال الرصافي يستخدم العنصر التراثي في تركيب الصورة الشعرية الحديثة حتى اصطبغت الصورة بروح تراثية، يقول الشاعر:

سَمِيَّ الْمُصْطَفَى لَا زِلْتَ تَعْلُو      إِلَى أَوْجٍ يُطَاوِلُ كُلَّ أَوْجٍ  
فَدُرُّ كَالشَّمْسِ فِي فَلَكِ الْمَعَالِي      وَحُلٌّ مِنَ الْكَمَالِ بِكُلِّ بُرْجٍ  
نُصِرْتَ عَلَى بَنِي يُونَانَ نَصْرًا      أَقَامَ الْعَرَبَ فِي هَرَجٍ وَمَرْجٍ  
وَأُطْلِعَ فِي سَمَاءِ الشَّرْقِ شَمْسًا      تَفِيضُ عَلَيْهِ أَنْوَارُ النَّرْجِيِّ<sup>4</sup>

جهد تخصيصي لا يمكن التتكر له بأي حال من الأحوال، صنع الأدبية المفارقة لعصر الانحطاط بعد أن كان الخيال فيه ممجوجا، وسقيما، ويشكو الركة، والضعف، فنقل الشعراء الإحيائيون الصورة الشعرية إلى مرتبة الديباجة المشرقة والأخيلة الرفيعة، وبهذا أمّن الجهد الإحيائي الذوق والأدبية في آن واحد.

#### 4- البنية اللغوية في الخطاب الشعري الإحيائي:

تتصلت الإحيائية من خاصيات لغة عصر الانحطاط وفي المقابل فإنها سعت إلى تقديم بدائل لغوية لمأسسة خطابها الشعري، فكانت طبيعة هذه البنية اللغوية محلاة بشغف ممدود الوصال مع خاصيات لغة الخطاب التراثي، ومن تلك البدائل اللغوية التي يمكننا التفصيل فيها قضية قواعد اللغة العربية، حيث أننا نجد البنية اللغوية للخطاب الشعري آخذة بتلابيب القواعد النحوية، ملتزمة بها مثلما التزم بها الأولون في الخطابات التراثية، "وكذلك يجب أن تكون الكلمة جارية على القواعد العربية في التصريف غير شاذة وألا تكون كثيرة الحروف"<sup>5</sup>. ومن البدائل اللغوية التي نلمسها في النسيج الشعري أن مال الإحيائيون إلى استخدام لغة معجمية أخذت مفرداتها من القاموس اللغوي التراثي وهو ما يمكننا تسميته بمعجم امرئ القيس، فكان هذا الأخير مرجعية يستلهم منه الشعراء المادة اللغوية في بناء النسيج الشعري، ومن الشواهد التي نتمثل بها في هذا السياق قصيدة الجواهري التي نظمها سنة 1929م، عنوانها "عناء"، حيث نجد الشاعر قد وظف فيها الكثير من الألفاظ التي استلهمها من القاموس اللغوي التراثي جاء فيها :

عَنَاءٌ مِنَ الْأَيَّامِ هَذَا التَّعَسُّفُ      تُحَاوِلُ مِنِّي أَنْ أَضَامَ وَأَنْفُ

وَتَطْلُبُ أَنْ يَسْتَلَّ فِي غَيْرِ طَائِلٍ      لِسَانَ فُرَاتِي الْمَضَارِبِ مُرْهَقُ  
 تَعَرَّفَ إِلَى الْعَيْشِ الَّذِي أَنَا مُرْهَقٌ      بِهِ وَالِي الْحَالِ الَّتِي أَتَكَفَّفُ  
 تَجِدُ صُورَةً لَا يَشْتَهِي الْحُرُّ مِثْلَهَا      يَسُوءُ وَفُوفٌ عِنْدَهَا وَتَعْرِفُ  
 تَجِدُ حَنْقًا كَالأَرْقَمِ الصَّلِّ نَافِحًا      وَذَا لَبِدٍ عَضْبَانَ فِي الْقَيْدِ يَرْسِفُ  
 أُعْصُ فِي الرَّادِ الَّذِي أَنَا آكِلٌ      أُشْرَقُ بِالمَاءِ الَّذِي أَتَرَشَّفُ<sup>6</sup>

لقد استخدم الجواهري ألفاظا متاحها من المقاموس التراثي نذكر منها أضام / آنف / المضارب / حنقا / الأرقم / الصل / لبد / يرسف / أشرق...، اختارها الشاعر بعناية من القاموس اللغوي التراثي وبذلك أسهمت في إحياء المعجم اللغوي القديم بدلا من اللغة السفسافة الركيكة التي لا تكاد تبين في عصر الضعف. يمكننا أن نضيف من خاصيات الوحدات اللغوية في النسيج النصي الإحيائي أنها لغة فصيحة تتسم بالجزالة، والمتانة، والألفاظ الفخمة، والرصانة حتى غطت على الخطاب الشعري الإحيائي، والفضل في ذلك راجع إلى معلم الإحيائيين الأول محمود سامي البارودي، فقد "أعاد.. للشعر العربي في عصر الثورة العربية الجزالة والرصانة ومتانة التراكيب التي عرف بها شعر الفحول"<sup>8</sup>. و نستشهد في هذا السياق بواحدة من روائع البارودي، يقول فيها:

لَيْبِكَ يَا دَاعِيَ الأَشْوَاقِ مِنْ دَاعِي      أَسْمَعَتْ قَلْبِي وَإِنْ أَخْطَأَتْ أَسْمَاعِي  
 مُرْنِي بِمَا شِئْتَ أَبْلُغُ كُلَّ مَا وَصَلْتُ      يَدِي إِلَيْهِ فَإِنِّي سَامِعٌ وَاعِي  
 فَلَا وَرَبِّكَ مَا أُصْغِي إِلَى عَذَلٍ      وَلَا أُبِيحُ حِمَى قَلْبِي لِخَدَّاعِ  
 إِنِّي امْرُؤٌ لَا يَرُدُّ العَدْلُ بِادِرْتِي      وَلَا تَقْلُ شَبَاهُ الخَطْبِ أَسْمَاعِي<sup>9</sup>

وبعد كل ما سبق يمكننا القول بأن الحركة الشعرية الإحيائية قد أخذت بتلابيب معطيات البنية اللغوية للخطاب الشعري التراثي، ووفق ذلك البديل أعاد الإحيائيون تخصيص القصيدة الحديثة، فكان

لجهود الشعراء الإحيائيين أن أيقظوا الحس العربي، كما كان في ذلك عظيم فائدة إذ أمنت اللغة العربية وحفظت ألفاظها من خلال الممارسة الشعرية.

## 5- البنية الموسيقية في الخطاب الشعري الإحيائي:

سنعمل في هذا العنصر على مساءلة خصوصية البنية الموسيقية كنسق مستقل، تحددت مرجعيته انطلاقاً من معطيات البنية الموسيقية التراثية وعلى الهيئة التي تأسست عليها القصيدة العمودية في الغالب الأعم من الإنتاجية الشعرية، وفي الأقل منها ضمن نتاجات الموشحة، وبنوع من التفصيل يمكننا القول بأن البنية الموسيقية للخطاب الشعري الحديث عولت على إحياء نظام القصيدة العمودية، والبداية التفصيلية في ذلك انطلاقاً من تبني نظام البيت الذي أفضى إلى بناء القصيدة وفق شكل عمودي، وهذا البيت هو في حد ذاته عبارة عن بناء قائم "على أساس الاعتدال والاستواء والفصل"<sup>10</sup>، حيث يخضع البيت لتركيبية الشطر الأول ويطلق عليه سمية الصدر في الوقت الذي يقابله الشطر الثاني ويطلق عليه سمية العجز، يلتزم الشاعر بهذا النمط من بداية القصيدة إلى نهايتها.

كما درج الشعراء الإحيائيون على "استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ذات الروي الواحد والقافية والوزن الواحد"<sup>11</sup>، وإن اختارهم هذا النظام الموحد في القصيدة بين الروي والقافية وأخيراً البحر قد استوحاه الشعراء الإحيائيون من خاصية القصيدة العمودية. أقام التجريب الشعري الحديث -في عمومه- وعلى مستوى الروي على نظم الخطاب الشعري تقريبا على كل أحرف اللغة العربية دون استثناء، إلا أننا نلاحظ أن ارتفاع نسبة النظم على روي دون آخر تختلف من شاعر إلى آخر هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه لا يمنع من انتفاء ورود بعض الأحرف كروي في دواوين بعض الشعراء الإحيائيين وبيان ذلك أننا نجد في ديوان البارودي غياب روي حرف الخاء، والغين<sup>12</sup>. غير أننا في بعض المواطن - وهي قليلة جدا- نجد بعض الشعراء الإحيائيين يغيرون في روي القصيدة، وتعليل ذلك أن الشعراء الإحيائيين قلما نوعوا في إنتاجية خطاباتهم الشعرية بين نظام القصيدة العمودية ونظام الموشحة بما هي خطاب شعري تراثي، ومن الأدلة الشعرية على ذلك أنموذج معروف الرصافي التي يحيي فيه وفد مصر الذي زار العراق سنة 1936م برئاسة المرحوم طلعت

حرب زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر وشركاته التي عادت على مصر بنتائج طيبة،  
يقول الشاعر:

أَتَى مِنْ مِصْرَ طَلَعْتُهَا بِنُ حَرْبٍ      فَأَهْلًا بِالْمُدَلِّ كُلِّ صَعْبٍ  
وَأَهْلًا بِالذِي ادَّخَرْتُهُ مِصْرُ      لِدِفْعِ مُلِمَّةٍ وَ لِقَرْعِ خَطْبٍ  
لَقَدْ شَاهَدْتُ مُبْتَهَجًا بِعَيْنِي      لَهُ فِي مِصْرَ آثَارًا كِبَارًا  
مَعَامِلُ مَارَسَتْ غَزْلًا وَنَسَجًا      فَأَغْنَتْ فِي صِنَاعَتِهَا الدِّيَارًا<sup>13</sup>

أما بالنسبة لمعطى الأبحر فقد نظم الشعراء الإحيائيون قصائدهم على الأوزان الخليلية الست عشرة كالطويل، والبسيط، والرمل، والمتدارك، والخفيف، والمنسرح، والكامل، والوافر...، وإن كان النظم عليها قد شهد نسبا متفاوتة من شاعر إلى آخر. هذه الأبحر عبارة عن مجموعة من التفاعيل قد تكون مختلفة التركيب والنوع والعدد كأن تكون خماسية مع سباعية مثل تفعيلية بحر الطويل (فعولن / مفاعيلن / فعولن / مفاعيلن)، أو متحدة التركيب والنوع والعدد كأن تكون خماسية فقط أو سباعية فقط مثل تفعيلية بحر المتقارب (فعولن / فعولن / فعولن / فعولن)، شكلت هذه الأخيرة على جسد القصيدة الإحيائية تقطيعا متساويا ومتوازيا بين التفاعيل يخضع لشكل ثابت الصورة، ومنتظم الورد، حتى كانت مجموعة من الوحدات والأنساق الوزنية، وهذا الاعتدال في الأجزاء هو أحد مولدات الموسيقى الإحيائية وهو معطى تراثي محض. ترد الأبحر الخليلية عند الشعراء الإحيائيين على الخيار، فهي قد ترد تامة أو مجزوءة أو مشطورة وأخيرا منهوكة، وربما نستغل الفرصة لنستشهد بنموذج شعري لحافظ إبراهيم سميته " ذكرى " وهو من الرجز المنهوك كتبه حافظ وهو في السودان إلى طائفة من إخوانه حيث يقول شاعر النيل:

مِنْ وَاجِدٍ مُتَقَرِّ الْمَنَامِ

طَرِيدُ دَهْرٍ جَائِرِ الْأَحْكَامِ

مُشْتَتِّ الشَّمْلِ عَلَى الدَّوَامِ

ومن المعطيات التي شكلت خصيصة القصيدة الإحيائية الحديثة ما يطلق عليه علم البديع مصطلح "التصريح"، وهو ظاهرة أحيائها الشعراء الإحيائيون في مستهل النسيج الشعري لقصائدهم الحديثة، وذلك من باب الحفاظ على مولدات الموسيقى في القصيدة، ولدينا عديد شواهد عجت بها دواوين الإحيائيين، ومثال ذلك قصيدة البارودي التي قالها بعد عودته من المنفى الذي دام سبع عشرة عاما من الاغتراب، فلما رأى الشاعر مصر من بعيد وهو على ظهر السفينة أنشد قصيدته وقد استهلها بتصريح:

أَبَابِلُ مَرَأَى الْعَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ      فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عُيُونًا هِيَ السَّحْرُ

نَوَاعِسُ أَيْقَظُنَّ الْهَوَى بِلَوْاحِظِ      تَدِينُ لَهَا بِالْفَتَكَةِ الْبَيْضِ وَالسُّمْرِ<sup>15</sup>

تغييت الحركة الشعرية الإحيائية المشرقية مأسسة البنية الموسيقية الحديثة وذلك من خلال عملية تخصيصها ضمن أعطاف موسيقى القصيدة العمودية بما هي مرجعية تراثية، ومن خلال ما سبق حول البنية الموسيقية يمكننا القول بأن مجموع التقديمات الإحيائية قد أعادت للقصيدة العربية الحديثة إهابها بعد أن ألبى مع معطيات عصر الانحطاط لتعود القصيدة الحديثة إلى الواجهة مع الحركة الشعرية الإحيائية، فكان من إيجابياتها المحافظة على خاصيات موسيقى القصيدة العمودية، كما أيقظت الحس العربي موسيقيا، وأمنت الذوق الشعري لدى ذائقة التلقي، وأخيرا أحييت الأذن الموسيقية من خلال إثارة إعجاب المتلقي بموسيقى النص الشعري هذه الموسيقى التي طمرت عناصر تطريبها وإمتاعها في عصر الضعف فكان في وقته لا يسمع إلا كل نشاز منفر من النص الشعري.

وفي ختام هذه الأوراق لا يسعنا سوى الإقرار بجهود الإحيائيين الرامية إلى تخصيص القصيدة لينتفش بذلك الخطاب الشعري الحديث، سواء على مستوى هيكله القصيدة، أو الأغراض الشعرية ومعانيها، أو الصورة الشعرية، أو البنية اللغوية، و أخيرا البنية الموسيقية، إلا أن هذا لم يكن ليرضي بعض الأطراف التي وسمت الإحيائية بالجمود والتقليد فكانت الفرصة لتدعو تلك الأطراف إلى

ضرورة التجديد في الخطاب الشعري لتكون هذه الدعوة المفتوح نحو الحركة الشعرية التجديدية الحديثة.